الله: « **هلا شققت قلبه فنظرت أصادق هو أم كاذب**» [(١)] على ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهم .

وقال فى شرح المقاصد : الإقرار إذا جعل شرط إجراء الأحكام لابد أن يكون على وجه الإعلان على الإمام وغيره من أهل الإسلام ، بخلاف ما إذا جعل ركنًا له فإنه يكفى له مجرد التكلم مرة وإن لم يظهر لغيره ، والظاهر أن التزام الشرعيات يقوم مقام ذلك الإعلان ، كما لا يخفى على الأعيان ، ثم الإجماع منعقد على إيمان من صدق بقلبه ، وقصد الإقرار بلسانه ، ومنعه مانع من خرس ونحوه ، فظهر أن حقيقة الإيمان ليست مجرد كلمتى الشهادة على ما زعمت الكرَّامية .

الإيمان لا يزيد ولا ينقص :

وإيمان أهل السماء أى من الملائكة وأهل الجنة **والأرض** أى من الأنبياء والأولياء ، وسائر المؤمنين من الأبرار والفجار **لا يزيد ولا ينقص** أى من جهة المؤمن به نفسه ، لأن التصديق إذا لم يكن على وجه التحقيق يكون فى مرتبة الظن والترديد ، والظن غير مفيد فى مقام الاعتقاد عند أرباب التأييد ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ [يونس:٣٦] فالتحقيق : أن الإيمان كما قال الإمام الرازى لا يقبل الزيادة والنقصان من حيثية أصل التصديق لا من جهة اليقين، فإن مراتب أهلها مختلفة فى كمال الدين ، كما أشار إليه سبحانه بقوله : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ [البقرة:٢٦٠] فإن مرتبة عين اليقين فوق مرتبة علم اليقين ، وكذا ورد : « ليس

---

(١) صحيح : أخرجه ابن أبى شيبة (١٤/ ٣٤١) وأبو عوانة فى صحيحه (١/ ٦٨) والطبرانى فى الكبير (٢/ ١٩٠) والطحاوى فى مشكل الآثار (٤/ ٢٥٢) .

الخبر كالمعاينة »(١) وإن قال بعضهم : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا ، يعنى أصل اليقين لمطابقة علم اليقين فى ذلك الحين ، وهو لا ينافى زيادة اليقين عند الرؤية ، كما هو مشاهد لمن له علم بالكعبة فى الغيبة ثم حصل له المشاهدة فى عالم الحضرة ، وعلى هذا فالمراد بالزيادة والنقصان القوة والضعف ، فإن التصديق بطلوع الشمس أقوى من التصديق بحدوث العالم وإن كانا متساويين فى أصل تصديق المؤمن به ، ونحن نعلم قطعًا أن إيمان آحاد الأمة ليس كإيمان النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا كإيمان الصِّدِّيق باعتبار هذا التحقيق ، وهذا معنى ما ورد : « **لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان جميع المؤمنين لرجح إيمانه** »(٢) يعنى لرجحان إيقانه، ووقار جنانه ، وثبات إتقانه ، وتحقق عرفانه ، ولا من جهة ثمرات الإيمان من زيادات الإحسان، لتفاوت أفراد الإنسان من أهل الإيمان فى كثرة الطاعات وقلة العصيان ، وعكسه فى مرتبة النقصان مع بقاء أصل وصف الإيمان فى حق كل منهما بنعت الإيقان ، فالخلاف لفظى بين أرباب العرفان .

ومن هنا قال الإمام محمد على ما ذكره فى « الخلاصة » عنه : أكره أن يقول : إيمانى كإيمان جبرائيل ولكن يقول : آمنت بما آمن به جبرائيل ، انتهى . وذلك أنَّ الأول يوهم أن إيمانه كإيمان جبرائيل من جميع الوجوه ، وليس الأمر كذلك كما هو الفرق البين بينهما هنالك . وقال فى الوصية : ثم الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنه لا يتصور زيادة الإيمان إلا بنقصان الكفر ، ولا يتصور نقصان الإيمان إلا بزيادة الكفر ، فكيف يجوز أن يكون الشخص الواحد فى حالة واحدة مؤمنًا وكافرًا وليس فى إيمان المؤمن شك ، كما أنه ليس فى كفر الكافر شك ، لقوله

---

(١) صحيح : سبق تخريجه .

(٢) صحيح : أخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده والبيهقى فى الشعب كما فى كشف الخفاء للعجلونى (٢/ ١٤٩) وابن عدى فى الكامل (٤/ ١٥١٨) والشوكانى فى الفوائد (٣٣٥) .

تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٤] أى فى موضع ، و ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥١] أى فى محل آخر ، والعاصون من أمة محمد ﷺ مؤمنون حقًّا وليسوا بكافرين أى حقًّا ، انتهى . فأشار الإمام بهذا الكلام إلى أن العصيان لا ينافى الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، خلافًا للخوارج والمعتزلة فإنهما عندهم لا يجتمعان ، ونحن نحمل هذا الحال على مقام الكمال ، فإن نفى المعصية بالكلية من المؤمن كالمحال وأما نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢] فمعناه إيقانًا ، أو مؤول بأن المراد زيادة الإيمان بزيادة نزول المؤمن به فى آى القرآن ، وأما قوله ﷺ لما سئل أن الإيمان يزيد وينقص : « **نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار** » فمعناه أنه يزيد باعتباره أعماله الحسنة حتى يدخل صاحبه الجنة دخولاً أوليًّا ، وينقص بارتكاب أعماله السيئة حتى يدخل صاحبه النار أولاً ، ثم يدخل الجنة بإيمانه آخرًا ، كما هو مقتضى مذهب أهل السنة ، على أن التصديق من الكيفيات النفسية للإنسان ، وهى تقبل الزيادة والنقصان باعتبار القوة والضعف فى مراتب الإيقان ، ثم الطاعة والعبادة ثمرة الإيمان ، ونتيجة الإيقان ، وتنور القلب بنور العرفان بخلاف المعصية ، فإنها تسود القلب ، وتضعف محبة الرب ، وربما يجره مداومة العصيان إلى ظلمات الكفران ، فإن الصغيرة تجر إلى الكبيرة ، والكبيرة إلى الكفر ، فنسأل الله العافية وحسن الخاتمة .

المؤمنون مستوون فى الإيمان متفاضلون فى الأعمال :

والمؤمنون مستوون أى متساوون فى **الإيمان** أى فى أصله **والتوحيد** أى فى نفسه ، وإنما قيدنا بهما فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر ، ولا شك أن البصراء يختلفون فى قوة البصر وضعفه فمنهم الأخفش والأعشى ، ومن يرى الخط الثخين دون الرقيق إلا بزجاجة ونحوها ، ومن يرى عن قرب زائد على

العادة وآخر بضده .

ومن هنا قال محمد على ما تقدم : أكره أن يقول : إيمانى كإيمان جبرائيل بل يقول : آمنت بما آمن به جبرائيل انتهى . وكذا لا يجوز أن يقول أحد : إيمانى كإيمان الأنبياء بل ولا ينبغى أن يقول : إيمانى كإيمان أبى بكر وعمر وأمثالهما ، فإن تفاوت نور كلمة التوحيد فى قلوب أهلها لا يحصيه إلا الله سبحانه ، فمن الناس من نورها فى قلبه كالشمس ، ومنهم كالقمر ، ومنهم كالكوكب الدرى ، ومنهم كالمشعل العظيم ، وآخر كالسراج الضعيف ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «**وذلك أضعف الإيمان** » وقوله عليه الصلاة والسلام : « **المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف** »[١] والقوة تشمل القوة الظاهرية العملية والقوة الباطنية العلمية ، وعلى منوال هذه الأنوار فى الدنيا تظهر أنوار علومهم وأعمالهم وأحوالهم فى العقبى ، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظت مرتبتها أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوتها ، بحيث ربما وصل إلى حال لا يصادف شبهة ولا شهوة ، ولا ذنبًا ولا سيئة إلا أحرقها ، بل « تقول النار : جزيا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبى » ومن عرف هذا عرف معنى قوله : « **إن الله تعالى حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله** » وقوله : « **لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله** »[٢] وأمثال ذلك عما أشكلت على كثير من الناس ، حتى ظنها بعضهم منسوخة وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهى ، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار ، وأوَّل بعضهم الدخول بالخلود ، فإن الشارع لم يجعل

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم فى القدر (٣٤) وابن ماجه (٧٩ ، ٤١٦٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٠) والحميدى فى مسنده (١١١٤) والبيهقى فى الكبرى (١٠/ ٨٩) .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود فى اللباس باب (٢٩) والترمذى (١٩٩٨ ، ١٩٩٩) وابن ماجه (٥٩ ، ٤١٧٣) وأحمد فى المسند (١/ ٣٩٩) والشجرى فى أماليه (٢/ ٢١٧) والطبرانى فى الكبير (١٠/ ٩٢) بلفظ : « لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط ، وتأمل حديث البطاقة فإن من المعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة ، وكثير منهم يدخل النار .

متفاضلون في الأعمال أى باختلاف الأحوال . قال فى « الوصية » : ثم العمل غير الإيمان ، والإيمان غير العمل ، بدليل أن كثيرًا من الأوقات يرتفع العمل من المؤمن ، ولا يجوز أن يقال : يرتفع عنه الإيمان ، فإن الحاض ترتفع عنها الصلاة ولا يجوز أن يقال : رُفع عنها الإيمان ، أو أُمر لها بترك الإيمان ، وقد قال لها الشارع : دعى الصوم ثم اقضيه ، ولا يصح أن يقال : دعى الإيمان ثم اقضيه، ويجوز أن يقال : ليس على الفقير زكاة ، ولا يجوز أن يقال : ليس على الفقير الإيمان، انتهى .

وحاصله أن العمل مغاير للإيمان عند أهل السنة لا أنه جزء منه ، وركن له من الأركان ، كما يقوله المعتزلة لما يدل عليه العطف الذى هو فى الأصل للمغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، حيث جاء فى القرآن من نحو قوله تعالى : ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ [البقرة: ٢٥] .

معنى الإسلام ونسبته إلى الإيمان:

والإسلام هو التسليم أى : باطنًا **والانقياد لأوامر الله تعالى** أى : ظاهرًا **ففى طريق اللغة** فى نسخة « فمن طريق اللغة » **فرق بين الإيمان والإسلام** فإن فى الإيمان فى اللغة هو التصديق كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] والإسلام مطلق الانقياد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ [آل عمران: ٨٣] أى انقاد ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا﴾ [آل عمران: ٨٣] أى الملائكة والمسلمون ﴿وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] أى : الكفرة حين البأس ، فالإيمان مختص بالانقياد الباطنى، والإسلام مختص بالانقياد الظاهرى كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]

وكما يدل عليه حديث جبرائيل حيث فرق بين الإيمان والإسلام بأن جعل الإيمان محض التصديق، والإسلام هو القيام بالإقرار وعمل الأبرار فى مقام التوفيق **ولكن لا يكون** أى لا يوجد فى اعتبار الشريعة **إيمان بلا إسلام** أى : انقياد باطنى بلا انقياد ظاهرى ، كما كان لأهل الكتاب ، وكما وجد لأبى طالب حال الخطاب ، وكما صدر لإبليس حال العتاب ، فلابد من جمعها فى صوب الصواب **ولا إسلام بلا إيمان** تأكيد لما قبله ، وإشارة إلى أنه يستوى تقدم الإسلام على تحقق الإيمان وعكسه فى مقام الإيقان ، إذ ربما يتقدم التصديق الباطنى ، ويتأخر الانقياد الظاهرى كمؤمنى أهل الكتاب ، وربما يتقدم الإسلام ظاهرًا ، ثم يوجد التصديق باطنًا ، كما وقع لبعض المنافقين حيث سلكوا فى الآخر طريق المؤمنين ، ولعل هذا وجه الحكمة فى قضية المؤلفة **فهما** أى الإسلام والإيمان كشىء واحد حيث لا ينفكان **كالظهر مع البطن** أى للإنسان، فإنه لا يتحقق وجود أحدهما بدون الآخر، وهذا تمثيل للمعقول بالمحسوس ، فتدبر ، وقد ورد الإسلام علانية والإيمان سرًا ، أى مبنى على نية ، والحاصل أن الإيمان محله القلب ، والإسلام موضعه القالب، والجسد الكامل منهما يتركب .

والدين اسم واقع على الإيمان والإسلام والشرائع كلها أى الأحكام جميعها ، والمعنى أن الدين إذا أطلق ، فالمراد به التصديق والإقرار ، وقبول الأحكام للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٨٥] وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾[آل عمران: ١٩] و ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾[الحج: ٧٨] و ﴿ **وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣] وليس مراد الإمام أن الدين يطلق على كل واحد من الإيمان والإسلام والشرائع بانفرادها ، كما توهم شارح فى هذا المقام ، لأنه خارج عن نظام المرام. وفى « عقيدة الطحاوى » : ودين الله فى الأرض والسماء واحد ، وهو بين الغلو

والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل ، وبين الجبر والقدر ، وبين الأمن واليأس ، وفى الصحيح عن أبى هريرة مرفوعًا : « **إنّا معاشر الأنبياء ديننا واحد** »(١) يعنى أصله ، وهو التوحيد وما يتعلق به ، لكن الشرائع متنوعة لقوله تعالى : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [المائدة: ٤٨] .

نعرف الله تعالى كما وصف نفسه :

نعرف الله تعالى حق معرفته أى لا باعتبار كنه ذاته ، وإحاطة صفاته ، بل بحسب مقدور العبد وطاقته فى جميع حالاته **كما وصف** أى الله سبحانه **نفسه** أى ذاته ، وفيه دليل على جواز إطلاق النفس على ذاته تعالى ، وأما إطلاق الذات فأكثر العلماء فى العبارات جمعًا بين الذات والصفات ، وقد ورد : « **تفكروا فى كل شىء ولا تفكروا فى ذات الله** »(٢) وأما ما ذكره السيوطى من أنه قد ورد إطلاق الذات عليه سبحانه فى « البخارى » فى قصة خبيب ، وهو قوله : وذلك فى ذات الإله . ففيه بحث من وجهين : أما أولاً فلأنه كلام صحابى ، وأما ثانيًا فلأنه ليس نصًا فى المدعى بل الظاهر أنه أراد فى سبيل الله ، وذلك لأن الكفار لما خرجوا به من الحرم ليقتلوه ، قال : دعونى أصلى ركعتين ثم أنشأ يقول : [بحر الطويل]

فلستُ أُبالى حين أُقْتَلُ مسلمًا ... على أىِّ شقٍّ كانَ فى اللهِ مصرعى

وَذلكَ فى ذاتِ الإلهِ وإنْ يشأْ ... يبارِكْ على أوصالِ شلوٍ ممزعِ

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) حسن : أخرجه أبو نعيم فى الحلية وابن أبى شيبة والأصبهانى فى ترغيبه والبيهقى فى الشعب والطبرانى فى الأوسط كما في كشف الخفاء (١/ ٢٧٨) وطرقه تقوى بعضها بعضًا وقال العجلونى : وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسبه قوة ومعناه صحيح وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رفعه : « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا خلقُ الله . . » الحديث .